نكران الذات وحمل الصليب *

الخورية سميرة عوض ملكي

نجد في إنجيل اليوم أن الربّ يسوع يضع شرطاً لاتّباعه وهو نكران الذات وحمل الصليب (مرقس ٨:٣٢). فماذا يعني هذا؟ تطلب الكنيسة منّا أن نسأل أنفسنا "ما الذي تعنيه قوة الصليب بالنسبة لي شخصياً إذ أعيش في العالم اليوم؟" للأسف لقد فقد الصليب معناه، الشخصي والجماعي، لدى كثيرين في الثقافة الدهرية اليوم، الغارقة في أولويات الحياة اليومية، حيث تحتل الكنيسة المرتبة الخلفية بين العديد من الأولويات الزمنية الأخرى. فالعالم اليوم يحثّ على التركيز على الذات والأنا، "أنا أولاً"، وهذا يظهر في الإصرار على عدم حرمان أنفسنا من أي شيء، لأننا "غداً نموت". إن هذه الثقافة تقود إلى الخمول الروحي والموت الروحي وتشجّعهما. إننا ننتقل في هذا العالم من سيء إلى اسوأ. إنه عالم تزداد فيه صعوبة أن يكون الإنسان مسيحياً حقيقياً.

هنا يأتي الصليب ونكران الذات كَرَدٍّ على العالم الساقط ويأسه، على الذين ينكرون الله ودعوته المُحِبَّة لحياتهم، وعلى كلِّ مَن يتعثّر في إيمانه. الصليب هو دائماً تذكير بالواقع المطلَق وأهمية ملكوت الله بالنسبة لنا، وتذكير بإخلاء المسيح لذاته (Kenosis في اليونانية)وتقدمته الطوعية لنفسه لهزيمة الخطيئة والموت نيابةً عنّا، وخلق إمكانية وجود نسل جديد لآدم ينتصر بالمسيح على الخطيئة والموت.

لكن في الحقيقة لا يمكننا أن نتبع المسيح ونصبح مشاركين في حياته إذا لم نكن على استعداد لإخلاء ذواتنا من كلّ ما لا يتماشى مع المسيح وإنجيله. ففي "موتنا عن الذات"، نحن الذين نحمل صليبنا مُعطين الأولوية للمسيح والإنجيل، نستعيد إنسانيتنا الحقيقية، وغايتنا ودعوتنا في هذه الحياة التي وهبنا إياها الله (مرقس ٨:٣٥).

أن نحمل الصليب اليوم معناه أن نحتمل الضيقات والأحزان والمجاعة والزلازل الآتية بكل تواضع وخضوع للمشيئة الإلهية. عندها يصير الصليب بمثابة سلم يقودنا من الأرض إلى السماء كما حصل مع لصّ اليمين المذكور في الإنجيل، الذي صعد من أرضِ أقبح الجرائم إلى ألمع مساكن الفردوس. فعلى صليبه تلفّظ اللصّ بالكلمات المملؤة بالحكمة والتواضع، إذ قال: "أمّا نحن فبعدلٍ لأننا ننال استحقاق ما فعلنا... اذكرني يا ربّ متى جئتَ في ملكوتك" (لوقا ٢٣:٤١-٤٣)ـ بهذا حوّل صليبه الذي كان أداة العقاب وراية العار إلى أداة النصر وراية المجد ومفتاح الفردوس على مثال صليب الربّ. هذا كان بعكس ما فعله لصّ اليسار الذي جدّف على المسيح، كما يفعل الكثيرون اليوم، فيتذمّرون من صليبهم ويجدّفون على الله ويتهكّمون على الصليب ويحاولون التخلّص منه. بهذا يصبح صليبه ثقيلاً لا يُحتَمَل ويؤدّي بصاحبه إلى الجحيم، فيصرخ هكذا: "ما الذي فعلتُه أنا ليحدث لي هذا؟" ذاك لأنه لا يدرك نفسه ولا يتوب، ويتّهم الرب العادل والرحيم بالظلم وعدم الرحمة ويوبّخ العناية الإلهية ويرفضها.

إن إنكار الذات أو بذل حياتنا من أجل المسيح ومن أجل الإنجيل الذي هو رسالة من المسيح نفسه وعمّا أنجزه لخلاصنا، والشاهد الأول لحقيقة الله التي تألّم من أجلها ومات على الصليب. هذا لا يعـني أن حياتنـا بلا فائـدة وليست مهمّة في عيني الرب، بل بالحري أن لا شيء يمكن أن يقارَن بما سنربحه مع المسيح.

+ عن نشرة الكرمة

* حول إنجيل أحد السجود للصليب